

التجديد الصوفي عند المدرسة الشاذلية

Sufi renewal at the shazilia school

أ.د خديجة بلخير

جامعة ابن خلدون-تيارت (الجزائر)، khadidja.belkheir@univ-tiaret.dz

تاريخ النشر: 2024/07/31

تاريخ القبول: 2024/04/01

تاريخ الاستلام: 2023/12/09

ملخص: تتناول هذه الورقة العلمية إشكالية التجديد الصوفي عند أبو حسن الشاذلي، هذا الصوفي الذي اشتهرت طريقته عبر كل أنحاء العالم الإسلامي، متبعا في ذلك تعاليم الشريعة القائمة على الكتاب والسنة، ومبتعدا عن الأفكار الدخيلة على التصوف والتي تؤدي بطبيعة الحال إلى الجهل والضلالة، فعرّف بمنهجه الإصلاحية والتجديدي.

والحديث عن التجديد في التصوف الإسلامي لا يخرج عن كونه سوى محاولة نفض الغبار إن صح التعبير على ما لحقه من بدع ومحدثات أعاققت طريق نموه وتطوره، وتكمن أهمية هذا الموضوع في إسقاط الضوء على المدرسة الشاذلية ودورها الكبير في ترسيخ قيم السلم والأمن الروحي، وتبيان منهجها الإصلاحية التربوي في بناء الإنسان، وكذا الإشارة إلى أثر الإمام أبو حسن الشاذلي في تجديد التصوف والدفاع عنه، وتصنيفه ضمن العلوم الدينية الأخرى (الفقه، علم الكلام، التفسير...إلخ).
كلمات مفتاحية: تصوف، إصلاح، تجديد، منهج، مدرسة.

Abstract: This scientific paper deals with the problem of Sufi renewal of Abu Hassan Al-shazly, this Sufi whose method is famous throughout the Islamic world , following the teachings of Islamic law based on the book and the sunnah, and away from ideas alien to Sufism which naturally lead to ignorance and misguidance, he was know for his reformist and renewal approach .

Enter your abstract here (an abstract is a brief, comprehensive summary of the contents of the article). Enter your abstract here (an abstract is a brief, comprehensive summary of the contents of the article). And the talk about the renewal of Islamic mysticism is only out of the attempt to shake the dust, if you will express the heresies and conversation that it hindered the path of its growth and development , the importance of this issue lies in the light on the shadily school and its great role in consolidating the values of peace and spiritual security, and clarifying its educational reform approach to building a person, as well as a reference to the impact of Abu Hassan Al-Shazly on renewing Sufism and defending him, and classifying it within other religious sciences (jurisprudence, speech science, interpretation...ect).

Keywords: Sufism; reform; renewal; curriculum; school..

1. مقدمة:

من بين الإشكاليات التي طرحت في الفكر الإسلامي وأخذت حيزا كبيرا لدى اهتمامات الباحثين مسألة الإصلاح والتجديد، فعرفت الحركة الإصلاحية في العصر الحديث كردة فعل للأوضاع المزرية التي كانت تعيشها المجتمعات العربية الإسلامية، حيث تركزت مطالبها على ضرورة العودة إلى الإسلام في عقيدته السليمة، وكيفية مواجهة التحديات الأوروبية في أنظمتها وأفكارها، فكان شعارها التغيير والتجديد، والإسهام في الحضارة الحديثة مع الحفاظ على الهوية الإسلامية.

وعرف التجديد في الفكر الديني مع ثلة من العلماء والمفكرين أمثال محمد عبده ومحمد إقبال وغيرهما، فشمل كل العلوم الشرعية كالفقه وعلم الكلام والتصوف، وهذا الأخير كان وما زال محل جدل ونقاش لدى الباحثين، فرأى بعضهم أن التجديد لا يخرج من كونه سوى نفث الغبار عنه وإعادة إحياء مقاصده الجوهرية، ومحاولة تكييفه مع مقتضيات العصر، في حين رأى البعض الآخر إمكانية الحديث عن تصوف جديد يشمل كل مستوياته (اللغة، المنهج، المسائل....).

وتعد المدرسة الشاذلية من المدارس التي كان لها الدور في التجديد والإحياء لمعالم التصوف السني، فتصدى كل من أبو الحسن الشاذلي، والشيخ خالد النقشبندي، والشيخ أحمد العلوي وغيرهم لتلك البدع والانحرافات التي ألصقت بالتصوف، محاولين بذلك الدفاع عن جوهر الشريعة والحقيقة بدحض الاتهامات والأباطيل، وتصحيح الأفكار والمفاهيم، والرجوع به إلى الأصول الأولى التي تأسس عليها، فأين نلمس ملاح التجديد الصوفي لدى المدرسة الشاذلية؟ وما هي الأسس التي ارتكز عليها الشاذلي في تجديده للتصوف الإسلامي؟

ويهدف هذا البحث إلى إسقاط الضوء على المدرسة الشاذلية ودورها الكبير في ترسيخ قيم السلم والأمن الروحي، وتبيان منهجها الإصلاحي التربوي في بناء الإنسان، وكذا الإشارة إلى

أثر الإمام أبو حسن الشاذلي في تجديد التصوف والدفاع عنه، وتصنيفه ضمن العلوم الدينية الأخرى (الفقه، علم الكلام، التفسير ..إلخ).

وقد اتبعنا منهجا تحليليا نقديا يقوم على تحليل أهم الأفكار والمسائل التي طرحها الشاذلي في كتاباته الذوقية، وكذا الاستعانة بالمنهج التأويلي لما يحمله المتن الصوفي من رموز وإشارات تحتاج إلى تفكيك، مرتكزين على المنهجية الآتية :

أولا: الشاذلي والتصوف.

ثانيا: الطريقة الشاذلية.

ثالثا: معالم التجديد في المدرسة الشاذلية.

2. الشاذلي والتصوف:

1.2 العارف بالله أبو الحسن الشاذلي:

الشاذلي الصوفي الزاهد التقى العابد الذي كرس حياته للعلم والتعليم والعبادة، هو علي بن عبد الله بن عبد الجبار، ينتهي نسبه إلى الحسن بن علي وقد ولد في المغرب سنة 593هـ بقرية غمارة، في مسقط رأسه تلقى تعليمه الأول من القراءة والكتابة، فحفظ القرآن الكريم وتفقه في علوم الدين فجذبته تلك الأنوار الربانية منذ صغره، وهيأت له الطريق فسافر إلى العراق بلاد العلم والعلماء والصالحين، باحثا عن ضالته في أرضها، وهناك التقى بصفوة أرباب التصوف أمثال أبو الفتح الواسطي الذي أعجب بعلمه وتقواه، ولكن سرعان ما عاد إلى المغرب وتلمذ على الشيخ عبد السلام بن مشيش بعد أن قال له أحد الأولياء " أنت تطلب القطب بالعراق وهو ببلاذك، ارجع إلى بلادك تجده، فرجع إلى بلاده إلى أن اجتمع بأستاذه الولي العارف القطب الغوث سيدي عبد السلام بن بشيش الشريف الحسني " (فريد، صفحة 05) أخذ قواعد التصوف من شيخه والتي جمعها في أربعة تتمثل في: المحبة-والرضا-والزهد-والتوكل، وبعد مدة من التلقي الروحي مع شيخه، شد رحاله إلى إفريقية، وبمنطقة تسمى شاذلة، ثم إلى

تونس والمشرق العربي، وكان لهذا الترحال أثر في البناء الروحي للشاذلي، فقد رسخ فيه العزيمة والإرادة في طلب العلم، وفي اكتساب أدبيات الطريق الصوفي، وممارسة التأمل والعبادة وصحبة أخيار الصالحين من المسلمين، ولم يسلم هو الآخر كغيره من العبّاد والفلاسفة والمفكرين من المحن التي كانت تتسلط عليه من أصحاب النفوس المريضة، فاتهم أنه " مجرد جاسوس يعمل لصالح الدولة الفاطمية " فاستجوبه ثلة من العلماء بأمر من سلطان تونس (أبي زكريا)، واستطاع بفضل علمه وفطنته أن يقنع الجميع أنه مجرد خادم للعلم والعلماء، وهو متيقن أنّ ما أصابه سوى ابتلاء من الله لرفع درجاته، وتوجه بعد ذلك لأداء فريضة الحج ثمّ عاد إلى تونس، وبعدها استقر به الحال في مصر وتلمذ على يديه الكثير من المريدين الذين كانوا يحبونه ويحترمونه .

من الصفات التي كان يتمتع بها الشاذلي صفاء السريرة، كريما وعطوفا على الفقراء، متواضعا ومحبا للفروسية، متبعا منهج الوسطية في حياته، وهذا ما جعل الكثير من العلماء والصالحين يثنون عليه، وممّا لاشك فيه أن تصوفه كان سنيا خاليا من الشبهات والبدع التي ألصقت بكثير من الصوفية سواء كان احتكاكاهم بالفلسفة والثقافات الأخرى أو العكس، ويبدو ذلك جليا من خلال تجربته الروحية، وكذا اختياره لأهم الكتب كأساسيات في الطريق الصوفي، نذكر منها : كتاب ختم الأولياء للحكيم الترميذي-كتاب المواقف والمخاطبات لمحمد بن عبد الجبار النفري-كتاب قوت القلوب لأبي طالب المكي-وكتاب الإحياء للإمام الغزالي، فهذه المصادر التي كان ينصح بها مريديه قراءتها.

ولم يعرف الشاذلي زاهدا وورعا في مجال التصوف فقط، بل عرف أيضا بجهاده ضد المستعمر ناقما عليهم، ملييا نداء الوطنية رغم ضعف جسده وفقدانه لبصره، حاملا همّ الأمة الإسلامية، مبيّنا في ذلك أسى معاني التصوف، فيكون الصوفي الحقيقي ليس ذلك المتعبد في محرابه المعزّل عن الخلق، بل المنغمس والمتأمل في الواقع وتحدياته.

وقد بلغ من المقامات مبلغا شريفا فقال فيه القرشي: " إذا ذكرت سيدي أبا الحسن الشاذلي، فقد ذكرت سيدي عبد القادر الجيلاني، وإذا ذكرت سيدي عبد القادر الجيلاني، فقد ذكرت سيدي أبا الحسن، لتوحد المقام فيهما، ولأن سرهما واحد وهما لا يفترقان " (فريد، الصفحات 11-12).

من الصفات التي كان يتمتع بها الشاذلي صفاء السريرة، كريما وعطوفا على الفقراء، متواضعا ومحبا للفروسية، متبعا منهج الوسطية في حياته، وهذا ما جعل الكثير من العلماء والصالحين يثنون عليه، ومما لاشك فيه أن تصوفه كان سنيا خاليا من الشبهات والبدع التي ألصقت بكثير من الصوفية سواء كان احتكاكهم بالفلسفة والثقافات الأخرى أو العكس، ويبدو ذلك جليا من خلال تجربته الروحية، وكذا اختياره لأهم الكتب كأساسيات في الطريق الصوفي، نذكر منها: كتاب ختم الأولياء للحكيم الترميذي-كتاب المواقف والمخاطبات لمحمد بن عبد الجبار النفري-كتاب قوت القلوب لأبي طالب المكي-وكتاب الإحياء للإمام الغزالي، فهذه المصادر التي كان ينصح بها مريديه قراءتها.

ولم يعرف الشاذلي زاهدا وورعا في مجال التصوف فقط، بل عرف أيضا بجهاده ضد المستعمر ناقما عليهم، ملييا نداء الوطنية رغم ضعف جسده وفقدانه لبصره، حاملا هم الأمة الإسلامية، مبيّنا في ذلك أسى معاني التصوف، فيكون الصوفي الحقيقي ليس ذلك المتعبد في محرابه المعزل عن الخلق، بل المنغمس والمتأمل في الواقع وتحدياته.

وقد بلغ من المقامات مبلغا شريفا فقال فيه القرشي: " إذا ذكرت سيدي أبا الحسن الشاذلي، فقد ذكرت سيدي عبد القادر الجيلاني، وإذا ذكرت سيدي عبد القادر الجيلاني، فقد ذكرت سيدي أبا الحسن، لتوحد المقام فيهما، ولأن سرهما واحد وهما لا يفترقان "

وحكى الشيخ تاج الدين بن عطاء الله في لطائف المنن قال: " دخل الشيخ مسلم السلمي علي سيدي أبي الحسن الشاذلي وهو بقلعة الاسكندرية، فقال: يا سيدي دلّوني عليك أنك

تدل الخلق على الله تعالى، فقال: ذلك لعامة الأولياء، بل الرجل الكامل من يقول ما أنت وربك " (الشاذلي أبي الفضل عبد القادر، صفحة 195).

لقد كان عارفاً بعلوم الظاهرة، جامعاً لدقائق فنونها، ومقتصباً لأبكار المعاني وعيونها من حديث وتفسير، وفقه، وأصول ونحوه، ولغة وتصريف، ومعقول، وحكمة، وآداب، وأما علوم المعارف الإلهية والحقائق الربانية فشمس ضحاها، وقطب رحاها، ثم جاءه بعد ذلك العطاء الكبير، والفضل الغزير " (عبد الرحمن بن محمد بن علي، 2022، صفحة 38).
وكانت وفاته في شهر ذي الحجة خمسين وستمئة، وهو مدفون بصحراء عند آب بِحْمَيْثْرَة .

2.2 الطريق عند الشاذلي:

قال الشاذلي قدس الله سره: " الطريق القصد إلى الله تعالى بأربعة أشياء، فمن حازهن فهو من الصديقين المحققين، ومن حاز منهنّ ثلاثاً، فهو من أولياء الله المقربين، ومن حاز منهنّ اثنتين فهو من الشهداء الموقنين، ومن حاز منهنّ واحدة، فهو من عباد الله الصالحين:
أولها: الذكر، وبساطه العمل الصالح، وثمرته النور.
والثاني: التفكير، وبساطه الصبر، وثمرته العلم.
والثالث: الفقر، وبساطه الشكر، وثمرته المزيد منه.
والرابع: الحب، وبساطه بغض الدنيا وأهلها، وثمرته الوصلة بالمحبوب (الشاذلي أبي الحسن، صفحة 27)

وقال: كل علم تسبق إليك فيه الخواطر وتتبعها الصور وتميل إليها النفس وتتلذذ بها الطبيعة فارمي به وإن كان حقاً، وخذ بعلم الله الذي أنزله على رسوله واقتد به وبالخلفاء والصحابة والتابعين من بعدهم أو بالهداة الأئمة المبرئين من الهوى ومتابعته، تسلم من الشكوك والظنون والأوهام والدعاوى الكاذبة المضلة عن الهدى وحقائقه، وماذا عليك أن تكون عبداً لله ولا علم ولا عمل " (الشاذلي أبي الحسن، صفحة 33)

وقال: الأخذ بالعلم يبني على أربعة أصول: إما من طريق الإشارة، وإما عن طريق المواجهة وإما عن طريق الفهم، وإما عن طريق السمع، وإما إيثار الله بالمحبة (الشاذلي أحمد بن محمد، صفحة 67)

يعرف الشاذلي التصوف بقوله: تدريب النفس على العبودية، وردها لأحكام الربوبية (الخضري يوسف بن عبد الجليل، 1971، صفحة 438)

وقال: الصوفي من لا يلتفت إلى الخلق ولم يسكن لمواعيد الحق.

وقال: الصوفي فيه أربعة خلائق:

التخلق بأخلاق الله تعالى، والمبادرة لأوامر الله تعالى، وترك الانتصار للنفس حياء من الله تعالى، وملازمة البساط بصدق الفناء مع الله تعالى.

وقال: الصوفي من الخلق في طي سره كالهباء في الهواء غير موجودين ولا معدومين، حسبما هم في علم الله، فالعوارض التي تمر على السر إنما هي للتجريد وللتأكيد، ليعلم بذلك حقيقة التوحيد (الخضري يوسف بن عبد الجليل، 1971، صفحة 438)

لم يختلف الشيخ الشاذلي عن بقية الصوفية الذين سبقوه في رؤيتهم للتصوف، فهو الآخر يرى أنه تجربة السالك بربه، المؤسس على جملة من الأخلاق، وإن كانت التعريفات التي قدمت للتصوف تتعدد بتعدد الأنفس، لكونه تجربة ذوقية، فإن أغلبهم يتفقون على أنه علم التزكية. أما عن المجاهدة فيقول: إذا أردت جهاد النفس، فاحكم عليها بالعلم في كل حركة، واضربها بالخوف عند كل خطوة، واسجنها في قبضة الله أينما كنت، واشك عجزك إلى الله كلما غفلت، فهي التي لم تقدروا عليها، وقد أحاط الله بها، فإن سخرت لك في قبضة فجدير أن تذكر نعمة الله تعالى وتقول: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرْنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ (الزخرف:13) (البيهي محمد بن أحمد، صفحة 166)

عرف الشاذلي كغيره من الصوفية بأوراد يتقيد بها المسلم في حياته، فهي بمثابة الحصن له، وقد قال فيها الشيخ ابن عطاء الله السكندري، مبيناً أهميتها في حياة المسلم الحسية والمعنوية

المادية والروحانية الدنيوية والأخروية: " لا يستحق الورد إلا جهول، والوارد يوجد في الدار الآخرة، والورد ينطوي بانطواء هذه الدار وأولى ما يعتنى به ما لا يخلف وجوده " (الفاسي عبد الرحمن، صفحة 04)

والأوراد هي عبارة عن مجموعة من الأذكار والأدعية يتلوها السالك تقرباً لله، وامتنالاً لقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ (الأحزاب: 41-42) وقوله تعالى: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ (الرعد: 27)، وأوراد الشيخ أبي الحسن الشاذلي لها فضل عظيم، فهي الجامعة بين العلم وآداب التوحيد، و" تعريف الطريقة وتلويح الحقيقة، وذكر جلال الله تعالى وعظمته وكبريائه، وذكر حقارة النفس وخستها و التنبيه على خداعها وغوايتها، والإشارة لوصف الدنيا والخلق وطريق الفرار من ذلك ووجه حصوله، والتذكر بالذنوب والعيوب " (الفاسي عبد الرحمن، صفحة 04)

فهذا المنهاج الرباني يهذب نفس السالك ويروضها على فعل الطاعات، ويزيدها حبا في معرفة الله والتقرب إليه، حيث لا يرى في الوجود إلا الله.

وهذه الأوراد تلقاها الشيخ الشاذلي بإذن من الله، وأمر من رسوله كما بين ذلك في فضل حزب البر المعروف بالحزب الكبير، وهذا ما يطلق عليه لدى الصوفية بالعلم اللدني، أي العلم الذي يكون بدون واسطة، وهذا السر لا يصله إلا خاصة الخاصة لأنه مقام شريف، وتلقيه يكون بالتلمذ على شيخ عارف بآداب الطريق، عالم بأمراض النفوس والقلوب، وبالأدوية الشافية لهذه الأمراض، وهو ورث من النبي صلى الله عليه وسلم.

من بين الأوراد التي أوصى الشيخ الشاذلي الحرص على قراءتها ما يلي:

1. كتاب الإخوة.

2. حزب البر

3. حزب البحر

4. الحزب الكبير

5. حزب الطمس على عيون الأعداء

6. حزب النصر

7. حزب الفتح يعرف بحزب الأنوار

8. صلاة الفتح والمغرب

وعرف الشاذلي أيضا كبقية الصوفية بالمناجاة، فكان يخلو بحبيبه في ظلمة الليل، رافعا يديه متوسلا إلى خالقه قائلا: "إلهي عظمتك ملأت قلوب أوليائك فصغر لديهم كل شيء، فأملأ قلبي بعظمتك حتى لا يضر ولا يعظم لديه شيء واسمع ندائي بخصائص اللطف فإنك السميع لكل شيء" - "إلهي معصيتك نادتني بالطاعة، وطاعتك نادتني بالمعصية ففي أيهما أخاف وفي أيهما أرجوك، إن قلت بالمعصية قابلتني بفضلك، فلم تدع لي حقا، وإن قلت بالطاعة قابلتني بعدلك فلم تدع لي رجاء فليت شعري كيف أرى إحساني مع إحسانك أم كيف أجهل فضلك مع عصيائها" (الشاذلي أبو الحسن، 2001، صفحة 76)

ففي المناجاة يشعر السالك بذله وافتقاره إلى الله، فيتلذذ بالطاعة والأنس بذكره.

3. الطريقة الشاذلية:

تعد الطريقة الشاذلية من أكبر الطرق انتشارا في العالم الإسلامي، وفروعها في مصر هي المحمدية والحامدية والفاضية والقاسمية والمدنية والسلامية والهندوسية والقواقجية والعميفية والوفائية والعزمية والإدرسية وغيرها، أما في سوريا فقد اشتهرت مع العارف بالله الشيخ محمد الهاشمي فعرفت بالشاذلية الدرقاوية، وزاد صيتها في ليبيا وتونس والجزائر وغيرها من مدن الشمال الإفريقي .

والطريقة الشاذلية "طريقة التربية بالهمة والحال والمقال، ثم ساق ما يشهد لهذا الموضوع من كلام الله تعالى، وكلام أهل التواضع والفتح والخشوع" (الفاصي عبد الرحمن، صفحة 10)

أنّ إمامها الأكبر سيدي أبا الحسن الشاذلي رضي الله عنه كان هيكلًا ذاتيًا، ولطيفة ربانية، وأنه وكذا جميع من اتصل بسند طريقة إلى قيام الساعة، كلهم ذاتيون، وأنه لا تطلق هذه النسبة على غيرهم من أرباب الأحوال المجاذيب وأهل الشطحات، ولو ظهرت منهم الخوارق بكثرة، فإنهم من عامة الأولياء الصفتيين، لا من خواصهم الذاتيين، وبين معنى الذاتيين والصفاتيين بما يسرّ البال، فراجعته تحظ بكل نوال، وتطرب في الحال والمآل (الشاذلي أبو الحسن، 2001، صفحة 10)

تقوم الطريقة الشاذلية على خمسة أصول:

- 1- تقوى الله في السر والعلانية .
- 2- إتباع السنة في الأقوال والأفعال.
- 3- الإعراض عن الخلق في الإقبال والإدبار.
- 4- الرضا عن الله تعالى في القليل والكثير.
- 5- الرجوع إلى الله تعالى في السراء والضراء .

يتبين من خلال هذه الأصول أن مشرب الطريقة مؤسس على الكتاب والسنة، وأنّ السالك في الطريق عليه أن يتعرج بالمقامات والأحوال التي تعد بمثابة سفر روحي إلى حضرة المحبوب، فالله هو المقصد الأول والأخير، وإتباع النهج النبوي هو الوسيلة لتحقيق ذلك.

يقول الشيخ الشاذلي: " فذو الحضرة له أربع مواطن كلها مراكز سره وروحه ونفسه وقلبه، وعقله مطمئن بالإيمان والتوحيد والنور، والعلم والمعرفة، واليقين والحياء والهيبة والأنس والمحبة ناطقا بلسان البيان " (الشاذلي أبو الحسن، 2001، صفحة 46)، ومحلها القلب فكلمها تطهر من آفات النفس ازداد نورا، وذكر القلب يثمر المعرفة ويهيج المحبة، ويولد القرب من الله تعالى، ومن آداب الحضرة: داوم النظر، وإلقاء السمع، والتوطين لما يرد من الحكم.

كان الشاذلي يوصي مريديه بضرورة المداومة على الذكر، والابتعاد عن الغيبة، ولزوم الجد في الطاعات والمخاطرة في أحوال المجاهدات، ومخالفة النفس وهواها، فيكون سيره إلى الله، إما

جذبة من جذبات الحق، وإما سالكا، والفرق بينهما يكمن في أنّ المجذوب هو من جذبه الله إليه، فكان في الطريق بالله لا بنفسه، وأما السالك ففيه أنواع، إما مجتبي من وراء حجاب، وإما سائرا لم يصل فأنته المنية، وإما لم يقدر له الوصول فيكون بذلك مستدرجا، وأفضلهم حسب الشاذلي قدس الله سره فهو السالك المجاهد للنفس وهواها. انتشرت الطريقة الشاذلية انتشارا واسعا، وأقبل الناس عليها في حياة أبي الحسن الشاذلي وبعد وفاته ففي إفريقية ازدهرت الطريقة بأصحابه الأربعين، وفي مصر بخليفته أبي العباس المرسي، وابن عطاء الله السكندري صاحب الحكم، وبشرف الدين البوصيري، صاحب البردة والهزيمة (المنصور محمد المهدي، 2016، صفحة 174).

4. التجديد في المدرسة الشاذلية:

من بين الإشكاليات التي يمكن طرحها على المجال التداولي الإسلامي، هو إمكانية الحديث عن تصوف جديد يوازي في ذلك علم الكلام الجديد الذي عرف بالتجديد في منهجه ولغته ومسائله، ولأن كونهما يمثلان علما من علوم الشريعة، فهل يحتاج التصوف إلى تجديد بنفس الوسائل والآليات التي عرفتها بقية العلوم الشرعية الأخرى؟

قبل الإجابة عن هذا التساؤل لابد من الإشارة إلى أنّ التصوف هو تجربة ذوقية لا تخضع لمعايير محددة كون أن الأمر متعلق بالمعرفة الإلهية والأسرار الربانية، فالمنهج يبقى ذوقي يختلف من صوفي إلى آخر، ولغته رمزية تحتاج إلى تفكيك ممّا يعني أن التجديد قد يكون على آليات قراءة النص الصوفي وليس على التجربة في حد ذاتها.

كما يجب الإشارة إلى أنّ التجديد هنا لا يعني الإتيان بالجديد، وإنما هو محاولة لنفض الغبار على التصوف وما أُلصق به من بدع وخرافات، وإعادة إحياء مقاصده من جديد، وكذا السعي إلى تهيئته لمواكبة متطلبات العصر.

1.4 ضرورة التمسك بالكتاب والسنة:

يعد الشيخ الشاذلي من المجددين له في القرن السابع الهجري، حيث انحرف الكثير من المريدين في الطريق بسبب جهلهم لأداب التجربة، فكانوا يتسابقون بالحصول على الكرامات ونيل المقامات، متناسين في ذلك رضا الله، فنبه الشيخ لهذا الأمر الخطير الذي يؤدي بصحابه إلى الضلال: "إنما هما كرامتان جامعتان محيطتان: كرامة الإيمان بمزيد الإيقان وشهود العيان، وكرامة العمل على الاقتداء والمتابعة ومجانبة الدعاوى والمخادعة، فمن أعطيها وجعل يشناق إلى غيرهما فهو عبد مفتر كذاب وذو خطأ في العلم والعمل بالصواب" (السكندري ابن عطاء الله، الصفحات 66-67)

فالكرامة لا تعدو سوى أن يكون السالك عالماً بالشريعة وعاملاً على الإقتداء بها، إذ لا يجب أن يتبع الهوى ويطلب غير ذلك، لأن هذا الأمر سيوصله حتماً إلى الضلالة والبدعة في طريق القوم، وهنا نجد الشيخ الشاذلي -قدس الله سره- يؤكد على ضرورة الالتزام بالتكاليف الشرعية، وأن جميع الكشوفات التي تحدث للسالك توزن بميزان الكتاب والسنة. فالكرامة عنده لا تخرج عن الاستقامة في الطريق، إذ نجده يقول: "وكرامات هي عند أهل الله أفضل منها وأجل وهي الكرامة المعنوية، كالمعرفة بالله، والخشية له، ودوام المراقبة له والمسارة لامثال أمره ونهيه، والرسوخ في اليقين والقوة والتمكين، ودوام الثقة به، وصدق التوكل عليه" (السكندري ابن عطاء الله، صفحة 66)، جاءت هذه الالتفاتة بعدما رأى الكثير من السالكون يطلبون الكرامة تباهاً بين الخلق، فغايته منذ البداية الكرامة وليس رضا الله ومحبته.

2.4 تفسير القرآن الكريم على طريقة أرباب المجاهدات والأحوال:

من الأمور التي وقف عليها الشيخ الشاذلي إحيائه لبعض المعاني الروحية للقرآن الكريم، فنجدته مثلاً يفسر سورة الفاتحة من قوله تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فيقول: علم الله عجز خلقه من حمده، فحمد نفسه بنفسه في أزله، فلما خلق الخلق اقتضى منهم أن يحمده بحمده، فقال: الحمد لله رب العالمين، أي قولوا الحمد لله رب العالمين، أي الحمد

الذي حمد به نفسه بنفسه هو له لا ينبغي أن يكون لغيره (السكندري ابن عطاء الله، صفحة 125) وفي قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة: 05) فجاء شرحها كالاتي:

إياك نعبد شريعة، وإياك نستعين حقيقة
 إياك نعبد إسلام، وإياك نستعين إحسان
 إياك نعبد عبادة، وإياك نستعين عبودية
 إياك نعبد فرق، وإياك نستعين جمع

وقال رضي الله عنه: قرأت مرة ﴿وَالتِّينَ وَالزَّيْتُونَ﴾ إلى أن انتهيت إلى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ ففكرت في معنى هذه الآية، فكشف لي عن اللوح المحفوظ، فإذا مكتوب فيه لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم روحا وعقلا، ثم رددناه أسفل سافلين نفسا وهوى (السكندري ابن عطاء الله، صفحة 134).

فتفسير معاني القرآن الكريم يختلف من صوفي إلى آخر، كل على حسب تجربته الذوقية ودرجته العرفانية، والشاذلي هنا جعل للآية الواحدة لطائف روحانية لا تحصى ولا تعد، وكلما اتسع المعنى ضاقت العبارة.

وسادة الصوفية يفسرون كلام الله تعالى بالمعاني الغيبية، فالآية عندهم لها ظاهر وباطن، الظاهر لعلماء الشريعة، والباطن لمن فتح له قلبه بالإيمان، وهذه الفئة هي لخاصة الخاصة، وقد بيّن الإمام الزركشي ذلك يقوله: " فالعبارات للعموم وهي للسمع، والإشارات للخصوص وهي للعقل، واللطائف للأولياء وهي المشاهد، والحقائق للأنبياء وهي الاستسلام " (الزركشي بدر الدين، 1988، صفحة 334) وهنا نلمس التجدد لتفسيرات معاني القرآن لدى الصوفية عامة وعند الشيخ الشاذلي خاصة، فهو يكشف لنا عن درره وجواهره الكامنة خلف حجاب الأحرف والكلمات، وهذا المقام لا يصله إلى من صفت سيرته، وفي هذا يقول سهل التستري: " لو أعطي العبد بكل حرف من القرآن ألف فهم، لما بلغ نهاية ما جعل الله تعالى في آية من كتاب الله تعالى من الفهم، لأنه كلام الله وكلامه صفته، وكما أنه ليس لله نهاية فكذلك لا نهاية لفهم كلامه،

وإنما يفهمون على مقدار ما يفتح الله تعالى على قلوب أوليائه من فهم كلامه " (الطوسي، 1971، صفحة 68) وبهذا تتجدد تأويلات النصوص القرآنية على اختلاف تجارب الصوفية.

3-4-تحقيق مقام الزهد :

جدّد الإمام الشاذلي مفهوم الزهد انطلاقاً من تجربته الذوقية، وإتباعاً لسنة الرسول المختار محمد صلى الله عليه وسلم، إذ غالباً ما نجده يصغر الحياة الدنيا لمريديه، ويبين حقيقته من خلال نهجه التربوي الإصلاحي، والزهد عنده هو فراغ القلب مما سوى الله، فأول محطاته – التخلية-أي تخلي النفس عن جميع الشهوات والملذات، ثمّ –التخلية- أي تحلي القلب بذكر الله والأنس في حضرته، وبالفضائل الطيبة، قال رضي الله عنه : " وصلت مع أصحابي مرة إلى المدينة، فنزلوا وقالوا: نستحي أن ندخلها على حمير، فأردت موافقتهم، فنوديت : " إنَّ الله تعالى لا يعذب على راحلة يصحبها التواضع، ولكن يعذب على تعب بصحبة التكبر" (المنائوي محمد عبد الرؤوف، صفحة 95)، فالأخلاق ضرورية للتحقق بمقام الزهد، وحتى يكون للمسالك نصيباً من الولاية فعليه أن يرفض النَّاس جملة، إلا من يدلُّك على الله، فالإعراض عن الدنيا والزهد في النَّاس، والالتزام بالمقامات والأحوال هي الخصال التي تحقق المبتغى.

كما أنه يفرق بين الزاهد والعارف، ويجعل للثاني أعلى درجة من الأول فيقول: " الزاهد جاء من الدنيا إلى الآخرة، والعارف جاء من الآخرة إلى الدنيا " – " الزاهد غريب في الدنيا لأن الآخرة وطنه، والعارف غريب في الآخرة فإنه عند الله " (السكندري ابن عطاء الله، صفحة 157)

هذا التبيان لمقام الزهد يعيد إحياءه من جديد، خصوصاً بعدما كان ينظر إلى أن الزاهد هو المنقطع عن العالم وأخباره، وتثبت الكثير من المواقف الروحية لدى الصوفية مدى تأثيرهم في المجتمع، وتصديهم لأفاته ومخاطره التي تعود على الفرد بالسلب، بل مقاومتهم للاحتلال بكل أنواعه، وسعيهم الدائم للحفاظ على الهوية الوطنية أكبر دليل على أنّ التصوف ليس انغلاقاً على الذات.

من بين الأمثلة ما قام به الإمام الشاذلي-قدس الله سره-أيام الحملة الصليبية على مصر، وأواخر النصف الأول من القرن السابع الهجري، حيث كان لويس التاسع ملك فرنسا، يقود الجيوش الجرارة من الصليبيين، يريد أن ينازل الإسلام والعروبة في معركة حاسمة هي معركة المنصورة (محمود عبد الحليم، صفحة 66) ، وكانت الديار المصرية آنذاك تضم ثلثة من العلماء الدينين الذين أخلصوا جهادهم لله، فلم تغرهم الدنيا بزخرفها وكان من بينهم، العز بن عبد السلام، ومجد الدين القشيري، ومحيي الدين بن سراقه ومجد الدين الأحميمي وغيرهم ، فلا يقتصر الجهاد لديهم على جهاد النفس فقط.

4-4- الاستدلال على وجود الله:

من بين المسائل التي وقف عليها الإمام الشاذلي-رضي الله عنه- الاستدلال على وجود الله، بعدما أثار الجدل والنقاش أوساط الفلاسفة والمتكلمون، فكثيرا ما كان ينبه على هذا الأمر لمريديه بقوله: " كيف يعرف بالمعارف من به عرفت المعارف، أم كيف يعرف بشيء من سبق وجوده وجود كل شيء" (السكندري ابن عطاء الله، صفحة 39) ويقول أيضا: " إنا للنظر إلى الله ببصائر الإيمان فأغنانا ذلك عن الدليل والبرهان، وإنا لا نرى أحدا من الخلق هل في الوجود أحد سوى الملك الحق؟".

ومن قوله أيضا: " ومن أعجب العجب أن تكون الكائنات موصلة إليه، فليت شعري هل لها وجود معه حتى توصل إليه، أو هل لها من الوضوح ما ليس له حتى تكون هي المظهرة له " فالاختلاف واضح بين أهل النظر و أهل المقام، فالإمام الشاذلي يرى أن الحق دليل على كل شيء، ولا يكون شيء دليل دونه دليلا عليه.

وأرباب الدليل والبرهان عموم عند أهل الشهود والعيان، لأن أهل الشهود والعيان قدسوا الحق في ظهوره أن يحتاج إلى دليل يدل عليه وكيف يحتاج إلى دليل من نصب الدليل؟ وكيف يكون معرفا به؟ وهو المعرف له (السكندري ابن عطاء الله، صفحة 39)

فأهل النظر والاستدلال بالنسبة للإمام الشاذلي يطلبون الحق ويبحثون عنه، فيستدلون تارة بأدلة من النقل وتارة بأدلة من العقل، بل نجد أغلب الفلاسفة المسلمون يلجؤون إلى أدلة الفلاسفة اليونانيين في إثباتهم لوجود الله كحدوث العالم، ودليل العناية والاختراع وغيرهم، لكن أرباب القلوب يشهدونه ببصر الإيقان.

فهذه الالتفاتة هي دعوة للعودة إلى الأصول الأولى للإسلام، وبضرورة التثبت بالكتاب والسنة، وأخذ الحيطة والحذر من التأثير بالثقافات الأجنبية، وتنبية لسالك الطريق أن لا يخوض في مثل هذه المسائل العقائدية، التي يقدم أهلها العقل على النقل، فضعف الإيمان يؤدي بصاحبه إلى الضلال والبدعة والتمسك بالنهج المحمدي يوصله إلى بر الأمان والسلام.

ويؤكد العارف بالله ابن عطاء الله السكندري قيمة موقف شيخه الإمام الشاذلي-قدس الله سره-بقوله: "إلهي كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك، أكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك، متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك، ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك" (أبي العباس ابن عجيبة الحسني، 2016، صفحة 519)

"كيف يتصور أن يحجبه شيء، وهو الذي أظهر كل شيء"

"كيف يتصور أن يحجبه شيء، وهو الذي ظهر بكل شيء"

"كيف يتصور أن يحجبه شيء، وهو الذي ظهر في كل شيء" (السكندري، 2017، صفحة 11)

وهذا قد اتبع الشيخ السكندري نهج شيخه في مسألة إثبات الله، لأنهم أهل أرباب يشهدون وحدانية الله بقلوبهم لا بعقولهم، وهنا نجد الاختلاف بين المتكلمين والفلاسفة والصوفية.

5. خاتمة:

نستنتج من خلال هذه الورقة البحثية أن العمل في مجال التصوف الإسلامي يفتح أفاقا كبيرة للخوض في أهم مسائله، إذ على الرغم من كثرة الدراسات حوله فهو يحتاج إلى تجديد القراءات على نصوصه، والتعمق أكثر في مصطلحاته الرمزية، ومحاولة استنطاق ما لا ينطق، فالتصوف جدير

بالاهتمام في حقل الفلسفة الإسلامية، وتعد المدرسة الشاذلية إحدى مدارس التزكية والسلوك في العالم الإسلامي، فقد لعبت دورا كبيرا عبر التاريخ في بناء الفرد وتهيئته نفسيا وروحيا لخدمة المجتمع، وذلك بعدما أسس إمامها الشاذلي قواعدها المبنية على الكتاب والسنة، وأعاد إحياء روح التصوف على خريطة الأخلاق والعمل.

ويمكن الولوج إلى جملة من النتائج تبين ذلك:

- 1- انشغال الإمام الشاذلي في تكوين الرجال، أغناه عن الاهتمام بالكتابة، وما وصلنا عنه كان عن طريق تلامذته تماما كما فعل أفلاطون بالتعريف بسقراط في محاوراته المشهورة.
- 2- تصوف الإمام الشاذلي ومن اتبع طريقته من بعده، كان تصوفا سنيا خاليا من البدع والضلالة.
- 3- وصول الإمام الشاذلي إلى مقام القطبية، دليل على أن لا مسلك في الحقيقة إلا وله فيه مأخذ مكين.
- 4- منهج المدرسة الشاذلية منهج تربوي تعليمي صالح لكل زمان ومكان.
- 5- يتميز منهج الإمام الشاذلي في تجديد الفكر الإسلامي، واعتماده على كتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالي من المسلمات التي تؤكد حقيقة ذلك.
- 6- ملامح التجديد في المدرسة الشاذلية اتضحت من خلال تبيان جوهر التصوف المؤسس على الكتاب والسنة، وإبطال تلك التهم والدعاوى التي ألصقت حوله انطلاقا من بعض ممارسات المنتسبين إليه وشطاحتهم التي تخالف الشرع.
- 7- إحياء معاني النصوص القرآنية المتوقف على التجربة الذوقية للصوفي، يعد مجالا من مجالات التجديد في الفكر الديني.
- 8- تركيز الإمام الشاذلي على إحياء جوهر الكرامة التي تعد تأييدا لمقام الولاية، هو محاولة لقتل تلك الأطماع الدنيوية في نفوس السالكين، وأنّ الغاية من دخول الطريق هو القرب من الله لا طلب الكرامة.

9- الحاجة إلى تجديد التصوف الإسلامي من الأساسيات التي يجب النظر إليها في الحقل التدوالي الإسلامي.

10- تخصيص بحوث علمية تتناول التجديد في المدارس الصوفية .

6. قائمة المراجع:

ابن عطاء الله السكندري. (2017). الحكم العطائية. دار الكرمة.

أبي العباس ابن عجيبة الحسني. (2016). إيقاظ الهمم في شرح الحكم لابن عطاء الله السكندري. بيروت: دار الكتب العلمية.

البيهي محمد بن أحمد. التحرير والتحبير لشرح الحزب الكبير للقطب الشاذلي، تحقيق: عاصم إبراهيم الكيالي . بيروت: دار الكتب العلمية.

الخضري يوسف بن عبد الجليل. (1971). الانتصار للأولياء الأخيار، تحقيق: أحمد فريد المزيدي. بيروت: دار الكتب العلمية.

الزركشي بدر الدين. (1988). البرهان في علوم القرآن. بيروت: دار الكتب العلمية.

السكندري ابن عطاء الله. لطائف المنن.

الشاذلي أبو الحسن. (2001). درة الأسرار وتحفة الأبرار، جمع: ابن الصباغ. القاهرة: المكتبة الأزهرية للتراث.

الشاذلي أبي الحسن. رسالة الأمين في الوصول لرب العالمين، تحقيق: أحمد فريد المزيدي. بيروت: ناشرون.

الشاذلي أبي الفضل عبد القادر. الكواكب الزاهرة في اجتماع الأولياء يقظة بسيد الدنيا والآخرة. بيروت: دار الكتب العلمية.

الشاذلي أحمد بن محمد. المفاخر العلية في المآثر الشاذلية. بيروت: دار الكتب العلمية.

الطوسي. (1971). اللمع . بيروت: دار الكتب العلمية.

الفاصي عبد الرحمن. شرح حزب البر. بيروت: دار الكتب العلمية.

المزيدي أحمد فريد. قطب المشرق والمغرب سيدي أبو حسن الشاذلي. بيروت: دار الكتب العلمية.

المناعي محمد عبد الرؤوف. الجوهرة الفاخرة في بيان أصل الطريق إلى معرفة مالك الدنيا والآخرة.
بيروت: دار الكتب العلمية.

المنصور محمد المهدي. (2016). التجديد في الفكر الصوفي. دمشق: دار الفكر.

عبد الرحمن بن محمد بن علي. (2022). درة عقد النحر في أسرار حزب البحر. مكتبة الأزهر الشريف.

محمود عبد الحلیم. المدرسة الشاذلية الحديثة وإمامها أبو الحسن الشاذلي. القاهرة: دار الكتب
الحديثة.